

النقائش العربية بافريقية وتطورها من القرن الثالث إلى نهاية النصف الأول من القرن السادس هجري

خالد مودود

تعدّ مجموعة شواهد قبور افريقية من أهم وأجمل المجموعات التي عثر عليها بالمغرب الاسلامي. فقد حافظت المقابر الاسلامية بمدن افريقية مثل القيروان، تونس، سوسة، المهدية، وصفاقس ما يزيد على ثلاثة آلاف شاهد قبر، وهي معروضة حاليا بمختلف متاحف الجمهورية أو محفوظة بمستودعات المعهد القومي للآثار والفنون.

تتميّز هذه القبريات بتعدّد أشكالها وثراء نصوصها مع أناقة كتابتها الزخرفية، وقد نحتت كتابتها على مرمر نقيّ متعدّد الألوان.

تعتبر نقائش هذه الشواهد مصادر ثابتة ووثائق تاريخية حافلة بشتّى المعلومات وهي أيضا جسلاً أصيلاً لأنواع متميزة من الخطّ الكوفي العربي وتعدّد عناصره الزخرفية مبرهنة على مدى موهبة النقاشون في الابتكار وثراء السجل الذي اقتبسوا منه أشكالاً الحروف والزخارف المنبثقة منها أو المتفرعة عنها.

يغطّي تاريخ هذه الشواهد فترة زمنية هامة تزيد عن الأربعة قرون. إذ تمتدّ تواريخها بصفة مسترسلة ابتداء من نهاية النصف الثاني للقرن الثالث إلى موفى القرن السادس هجري، هذا ممّا يمكّننا من دراسة دقيقة لهذه القبريات واستخلاص بعض السمات والتطورات الهامة التي طرأت على نقائش شواهد قبور إفريقية من حيث الشكل والمضمون وخاصة دراسة أسلوب كتابة القبريات وزخرفتها منذ أواسط القرن الثالث إلى أواخر القرن السادس هجري.

- ان التطور الذي عرفه الخطّ الكوفي منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع هجري، والمتمثل في استبدال النحت الغائر بالخطّ الكوفي ذي النحت البارز، قد واكبه تطورا من حيث شكل قبريات افريقية، حتى نهاية القرن السادس هجري، نلاحظ أن جل القبريات التي تم العثور عليها تنحصر أساسا في ثلاثة أشكال : عمودية، في شكل لوح أو في شكل سيف.

لقد عرف القرن الثالث خاصة استعمال القبريات العمودية أو في شكل لوح، ثم ظهرت بانتهاء القرن السادس هجري بمدينة القيروان مشاهد في شكل سيف.

عرفت مدينة تونس أشكالاً جديدة من المشاهد تتمثل في قبريات قرصانية أو مستطيلة، ومشاهد في شكل بلاط. كما انفردت مدينة تونس فترة الحكم الخراساني بظاهرة نادرة في شواهد قبور إفريقية متمثلة في استعمال شاهدين مختلفي الشكل لشخص واحد، إذ عثر لأمرأى هذه العائلة على شاهدين، الأول في شكل لوح يحمل كتابة بالخط الكوفي والثاني في شكل سيف يحمل خطأ نسخياً أو عكس ذلك⁽¹⁾.

* قبريات في شكل لوح : تعتبر من أقدم الأشكال المستعملة في شواهد قبور إفريقية، حيث يرجع تاريخ أول شاهد عثر عليه بهذا الشكل إلى سنة 256 هـ/870 م⁽²⁾.

* قبريات في شكل عمود : كذلك قديمة الاستعمال، إذ تظهر أقدم المشاهد المعروفة بهذا الشكل إلى أواخر النصف الأول من القرن الثالث هجري 235 هـ/850 م⁽³⁾ وقد وجد هذا الصنف من القبريات بصفة مكتفة بمدينة القيروان، حيث احتفظت مقابرها بأجمل الأمثلة.

* قبريات في شكل سيف : لم يظهر هذا الصنف في شواهد قبور إفريقية إلا في نهاية القرن الرابع هجري، إذ أن أقدم شاهد عثر عليه يرجع إلى سنة 391 هـ/1001 م⁽⁴⁾.

- تتضمن نصوص هذه القبريات معلومات تاريخية جغرافية واجتماعية هامة جداً، مكنتنا في أغلب الأحيان من تدارك نقائص جل المراجع التاريخية المتداولة وضبط ما جاء فيها. إذ تمدنا هذه النقائص بشتى المعلومات من أسماء الأشخاص ذوي الحيثية والأهمية الخاصة ككبار رجال الدولة من فقهاء⁽⁵⁾ وقضاة⁽⁶⁾ وأدباء، والمهمن أو الوظائف⁽⁷⁾ أسماء الصنائع

(1) انظر Maoudoud Khaled. L'Art funéraire de Tunis sous les Banu Hurasan st. n° 19 et 20 p. 123-130, pl. XXXIV et XXXV.
et n° 21 et 22, p. 131-138, pl. XXXVI et XXXVII.

(2) حول ظهور هذا الشكل من القبريات وتطوره، انظر :

Mustapha El-Habib, Stèles funéraires Kairouanaises d'époque Fatimide et Ziride, p. 16-19.

(3) حول تطور هذا الشكل انظر : نفس المصدر : ص. 19 إلى 26.
انظر كذلك :

B. Roy et P. Poinssot. Inscription Arabes de Kairouan Vol. I, n° 50, p. 104-110, pl. 6

(4) انظر : نفس المصدر، ص. 26 - 29 وكذلك : رقم 169، ص. 293 - 295.

B. Roy et P. Poinssot.

(5) لقد تضمنت سجلات الأسماء الواردة في نصوص قبريات إفريقية حتى موفى القرن الخامس الهجري ذكر ما لا يقل عن إحدى وثلاثين فقيهاً.

(6) انظر : الكتابات العربية القيروانية، رقم 138، 150، 169، 292، 322.

(7) نقدم لنا هذه النصوص عدة مهمن ووظائف بعضها ما زال قائماً وبعضها اضمحل، كالنساجي، الغنّام، الخلال، المقرّي، المتطبّب، القصّاع، الزّهدار، الزّراوي، السّوداكي، السيوري...

والتجّار، أسماء المدن والقبائل... كما توفّر لنا نصوص هذه الشواهد معلومات ضافية عن شخصيات من عامّة الناس غفلت كتب التراجم أو لم تهتم بتناول سيرهم. وقد تعرضت هذه النصوص إلى الكثير من الأحداث لم تسجلها المراجع بدقّة ولم تضعها في حجمها الحقيقي كانتشار الأويّة والوقائع الحربية⁽⁸⁾.... بالإضافة إلى اشارات عديدة نكتشف من خلالها دراسة رسم اللغة وأساليب الاملاء والأخطاء الشائعة والواردة بهذه النصوص.

* ننحصر مقومات هذه النصوص عامة في عدّة محاور أساسية :

- البسملّة
- التّصلية، ذكرت بصيغ عديدة حسب التّيارات السياسية والدينية.
- ذكر آية أو بعض الآيات القرآنية أهمها سورة الاخلاص الآية 112 : قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، سورة آل عمران (جزء من الآية 182)، كل نفس ذائقة الموت وأنما توفون أجوركم يوم القيامة (أو بأكملها) فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة النّيا إلا متاع الغرور، أو استعمال جمل مقتبسة من سورة الأحزاب الآية 21، لله العزّة والبقاء وله ما ذرا وبراً وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أسوة وعزا.
- ذكر اسم المتوفّي تتبعه في أغلب الحالات نسبته ومهنته.
- تاريخ الوفاة مع ذكر اليوم والشّهر والسّنة تتقدّمهم جملة هذا قبر...
- الشّهادة بصيغ مختلفة أكثرها مقتبس من القرآن الكريم مثل : سورة التّوبة الآية 33، سورة الحج الآية 7.
- الدّعاء لفائدة المتوفّي.

غير أن هذه المحاور الأساسيّة قابلة للتحوير من حيث الترتيب والصيغة حسب الأساليب الجهوية المتبعة وحسب الفترات التاريخية. إذ تميز كل عصر بأسلوب خاص في تأليف نصوص شواهد القبور الافريقية بحيث يرتبط ارتباطاً وثيقاً ويتأثر حسب الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية. إذ تتفرّد كل جهة بأسلوب خاص في كتابة هذه النصوص، من حيث اختيار الآيات القرآنية أو ترتيب محاور النصّ الأساسيّة والصيغ التي ذكرت بها بعض هذه المحاور كالتصلية والشّهادة والأدعية.

كما تتفرد نصوص قبريات بعض المدن الافريقية كالقيروان⁽⁹⁾ ببعض الخاصيات، إذ يغلب على نصوص شواهد قبور هذه المدينة الاكثار من الآيات القرآنية، الاطالة في الأدعية

(8) يظهر كذلك جليا في شواهد القيروان خاصة سنة 333 هـ وسنة 430 م.

(9) انظر الدراسات حول مضمون نصوص شواهد قبور مدينة القيروان خاصة :

B. Roy et P. Poinssot, Ibid, Vol. I, p. 105-110.

Mustapha El-Habib, Ibid, p. 107-110.

S.M. Zbiss. Nouvelles Inscriptions de Kairouan, p. 7-19.

واستعمال العديد من الجمل المقتبسة من القرآن، خلافاً لنصوص قبريات مدينة تونس في نفس الفترة أي نصوص القرن الخامس هجري⁽¹⁰⁾ والتي يطغى عليها الاختصار والبساطة.

كما يتأثر مضمون هذه النصوص بالآزمات السياسية والدينية. إذ تبرز في فترات معينة بعض الجمل معبرة عن الجدل الفكري والصراع المذهبي الذي عرفته إفريقية في أواخر القرن الثالث هجري حول موضوع خلق القرآن. يظهر ذلك من خلال بعض نصوص القبريات التي تؤكد أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق⁽¹¹⁾.

انتقال الحكم من الأغالبة إلى الفاطميين واكب ظهور أدعية شيعية المعتقد مثل :
وصلّى الله على محمّد خاتم النبيّين وعلى أهله الطيّبين وسلّم، وصلّى الله على محمّد وعلى أهل بيته وعلى صحابته، أو وصلّى الله على آله الطيّبين الأخيار⁽¹²⁾.

قيام الدولة الفاطمية الشيعية بإفريقية رافقته اضطرابات مذهبية إذ تصدّى أهل البلاد السنيّين المناوئين للمذهب الشيعي، فيظهر هذا الصراع جلياً في نصوص هذه القبريات، حيث يؤكد المتوفّي على سنيّته ويصرّح بكرهه ونمّه لأهل الشيعة مثل : مات على الاسلام والسنة والجماعة، مات وهو مصرّ على بغض أعداء الله بني عبيد ولعنّتهم أو مات على محبة الله ومحبة رسوله وأصحابه الأظهر وبغض بني عبيد الكفار⁽¹³⁾.

- علاوة على الجانب الوثائقي لهذه النصوص توفر لنا كتابة نقائش هذه القبريات مادة قيّمة لدراسة أشكال رسم الحروف وأساليب زخرفتها. فهي تعتبر سجلاً ثابتاً وأصيلاً لدراسة الخطّ العربي وتطوّره. كما تقدّم سجلاً كاملاً لأغلب التكوينات والأشكال الزخرفية من توريق وفروع نباتية ووحدات هندسية.

إن التمرّس في دراسة كتابات هذه الشواهد وطرق زخرفتها يمكّن من تتبّع تطوّر هذا الخط وتصنيفه، إذ أن كل فترة انفردت بأسلوب خاص من حيث نحت الحروف ورسم أشكالها وزخرفتها.

* فقد تميّزت كتابة قبريات القرن الثالث الهجري بانتشار الخط الكوفي ذي النحت الغائر فانتسمت الكتابة ببساطتها وقلة زخرفتها، ممّا أفضى على هذا الخط طابعاً رصيناً هادئاً.

أولّى النفاشون اهتمامهم بالجانب الوثائقي لهذه الكتابة وذلك يتضح في دقّة رسم الحروف وجودة نحتها. كما اتسمت كتابة قبريات أواخر هذا القرن بقلة زخرفتها وعدم التوازن بين

Maoudoud Khaled, Ibid, p. 69-82

(10) انظر :

(11) انظر الكتابات العربية القيروانية، رقم 77 ص 152 - 154، ورقم 170، ص. 296.

(12) انظر : نفس المصدر. رقم، 275، ص. 401 - 402.

(13) انظر : نفس المصدر. رقم، 395، ص. 534 - 535 ورقم : 397، ص. 586 - 587.

الأجزاء العليا والسفلى للأشرطة الكتابية. تعزى هذه العوامل ربّما إلى حدودية تقنية الآلات المستعملة وأسلوب الكتابة نفسه إذ أن النحت الغائر يحمل البساطة في ذاته.

★ خلال النصف الأول من القرن الرابع عرف هذا الخط تطورا ملحوظا على المستوى العلمي والفني، تناول في مرحلته الأولى أساسا شكل الحروف نفسها وطريقة نحتها. إذ ظهر الخط الكوفي ذي النحت البارز وحلّ تدريجيا محلّ الكتابة الغائرة. إلا أن رسم هذه الحروف بقى خاليا من الدقة والانتقان إذ تبدو بارزة وكبيرة الحجم لا تزال بمراحلها الانتقالية.

★ منذ مستهلّ القرن الخامس هجري بلغت كتابة هذه النقائش درجة عالية في دقة رسم الحروف وجودة نحتها. أطلق النقاشون موهبتهم في رسم أشكال الحروف التي أصبحت تستمد غناها من ذاتها فظهرت الحروف المتعانقة والمتراصة أو الملتوية، ولم يلبث أن انبثقت من أواخر هذه الحروف عدّة زخارف نباتية كأنصاف الورقة الثلاثية الفصوص والأوراق المتعددة الأشكال أو الأغصان الصغيرة الممتدة والملتوية لملء الفراغ بالجزء العلوي لحقل الكتابة. كما استعملت زخارف نباتية وهندسية مستقلة تختلف أحجامها وفصوصها حسب الفراغ الذي تملأه بين الحروف الصاعدة. وأدت إلى إثراء ملحوظ لرصيد جلّ العناصر الزخرفية الإفريقية. ممّا أفضى على كتابة هذه الشواهد تناسق بديع بين الحروف والزخرفة وتنظيم محكم لحقل هذه الكتابة.

زحرت مدينة القيروان بهذا الصنف من القبريات حيث ظهر في نصوص هذه الشواهد أسماء العديد من النقاشين اختصوا في هذا المجال وربما تداولوا المهنة أبا عن جدّ مثل : عتيق بن حسن، أبو القاسم بن حسن، خلوف بن أبو الخير، أبو بكر بن أبو الخير، حسن القيسي، حسن المهدي النقاش حيث تفرد كل نقاش بأسلوبه الخاص في نحت أشكال الحروف وزخرفتها⁽¹⁴⁾.

★ عرفت كتابة قبريات أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس مرحلة جديدة من التطور تمثلت في تحرّر النحات من الأساليب المعتادة في رسم أشكال الحروف وطرق زخرفتها. يبرز ذلك جليّا في قبريات مدينة تونس فترة الحكم الخرساني 454 هـ/ 1062 م - 554 هـ/ 1159 م⁽¹⁵⁾ حيث طغى الطابع الجمالي والفني لهذه الشواهد على الطابع الوثائقي.

أصبح النقاش يستنبط في كل ظرف أسلوبا خاصا لرسم أشكال الحروف وطريقة زخرفتها يتناسب مع شكل شاهد القبر. فأطلق عنان عبقريته لابتكار أشكال متنوعة من الحروف ورسمها بطرق مختلفة وإدخال تعديلات هامة على أساليب زخرفتها.

(14) انظر الدراسة التي قمت بها حول هذا الموضوع والتي ستصدر بمجلة افريقية.

(15) انظر :

Maoudoud Khaled, Ibid, p. 196-237.

فقد برز اهتمامه بتغطية جُل مساحة حقل الكتابة وإيجاد تناسق بديع بين الحروف والزخرفة، فبلغ الخطُ درجة عالية من التعقيد الفني وأصبحت الحروف تستمد غناها من ذاتها فاستعملت الحروف المزهرة والمتعاقبة وكثرت الالتواءات إلى درجة تشكيل جداول مظفورة.

وضعت هذه الكتابات على أرضية من الزخارف النباتية البديعة، تختلف أشكالها حسب الفراغ الذي تملأه، كاستعمال جداول متعددة الالتواءات تنبثق منها زخارف متفرعة تُفصي تناسق هندسي بين الجزء العلوي والجزء السفلي لحقل الكتابة، أو غصنية تمتد على طول أرضية الحقل وتحلّ الجزء الأوسط للأشرطة الكتابية، فتتموج وتتفرّع عن هذه الغصنية تشعبات ثانوية منطوية تنتهي بزخارف تتكوّن من عنصر الورقة بمختلف أشكالها وعناصر نباتية أخرى متشابكة لم نعهدها بالرّصيد الزخرفي المغربي لتملأ الفراغ بين الحروف.

- بانتهاء القرن الخامس هجري، عرفت كتابة شواهد قبور إفريقية تحولا جذريا يتمثل في ظهور استعمال الخط النسخي انطلاقا من سنة 490 هـ/1097 م، حيث تم العثور بمقبرة «سيدي بوخريصان»⁽¹⁶⁾ بمدينة تونس على أول وثيقة وصلتنا عن استعمال الخط النسخي في نقائش قبريات إفريقية. وقد شملت هذه التغييرات تنظيم أرضية الكتابة نفسها وأساليب رسم الحروف وما انجز عن ذلك من تغيير شامل في كيفية التناسق بين الكتابة والزخارف المنبثقة منا أو المتممة لها.

أصبح النحات يستعمل رسم أشكال الحروف نفسها لملء أكبر مساحة ممكنة للأشرطة الكتابية فجاءت الحروف متداخلة ومتصلة ببعضها. كما أطلقت موهبة النحاتون لابتكار مجموعة من الزخارف متدرجة التعقيد حسب المساحات التي تملأها متماشية مع الأشكال الجديدة لرسم حروف هذا النمط من الخط.

فظهر هذا الخط المستدير، أو اللين لم يؤد إلى احتفاء الخط الكوفي، بل واصل النقاشون استعمال الخطين بصفة تكاد تكون متداولة حتى موفى القرن السادس هجري⁽¹⁷⁾ حيث وقع تقلص نسبي في استعمال الخط المستقيم، ثم كاد ينعدم في قبريات أواخر القرن السابع هجري الذي عرف انتشار الخط النسخي.

(16) حول هذه المقبرة انظر : نفس المصدر، ص. 18 - 20.

(17) حول ظهور الخط النسخي ومواصلة استعمال الخط الكوفي في شواهد قبور افريقية. انظر نفس المصدر ص. 235 - 245.

المراجع

EL-HABIB (M).

- **Stèles funéraires Kairouaniases d'époque Fatimides et Zirides.** Paris, 1972. (Thèse de doctorat de 3^è cycle non publiée).
- **Les inscriptions arabes anciennes des stèles funéraires du Musée de Kairouan.** diplôme de L'E.P.H.E., VI^è section, Pari 1971.
- **Stèles funéraires Kairouanaïses inédites du début du IV^è/X^è au milieu du V^è/XI^è siècle; étude épigraphiques,** dans le Bulletin archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques, nouvelle série 9, fasc. B. Af. du Nord 1973. Paris 1976, p. 45-110.
- **Stèles funéraires Kairouanaïses du III^è/IX^è siècle, Etude typologique et esthétique,** dans R.E.J. fasc. II, XL III, 1975, p. 227-284.

HOUDAS (O).

- **Essai sur l'écriture maghrébine,** dans nouveaux mélanges orientaux, Paris, 1886, p. 85-112.

HOUDAS (O). et BASSET (R).

- **Epigraphie Tunisienne,** Dans Bulletin de correspondance africaine, tome I. Alger, Juillet-Aôut 1882, p. 161-200.

IDRIS (H.R).

- **Essai de datation de la Maqsûre de la grande mosquée de Kairouan,** dans Arabica, III, Mai 1956, p. 214-215.

MAOUDOU (Kh).

- **L'art funéraire de Tunis sous les Banu-Hurasan, 454H./1159.** Paris, 1983 (thèse de doctorat de 3^{ème} cycle non publiée).

ROY (B).

- **Inscriptions arabes de Mehdia,** Revue Tunisienne, n°108, janvier 1915, p. 29-34.

- **Inscriptions arabes de Monastir**, Revue Tunisienne, n°125, Janvier 1918, p. 85-91.

ROY (B) et POINSSOT (P).

- **Inscriptions arabes de Kairouan**, 2 Vol, Paris, C. Klincksieck 1950.
- **Note sur une inscription de cabra**, dans, Bulletin archéologique, 1922, p. XL IX.

VIRE (M. M).

- **Inscriptions Arabes des Stèles funéraires du Musée de Sousse**. dans Cahiers de Tunisie, N°, 1956, p. 450-493.

ZBISS (S.M).

- **Corpus des Inscriptions Arabes de Tunisie**, 4 Vol,.
 - **Inscriptions de Tunis et de sa banlieue**, Imp. S.A.P.I, Tunis, 1955.
 - **Inscriptions du Gorjâni: Contribution à l'histoire des Almohades et des Hafside**, la Presse, Tunis 1962.
 - **Inscriptions de Monastir**. Imp. la Presse, Tunis 1960.
 - **Nouvelles Inscriptions de Kairouan**. I.N.A.A, Tunis 1977.
- S.M. ZBISS, B. ROY, P. POINSSOT et L. POINSSOT.
- **Inscriptions arabes de Kairouan**, 3 partie, I.N.A.A., Tunis 1983.

لوحة : 1

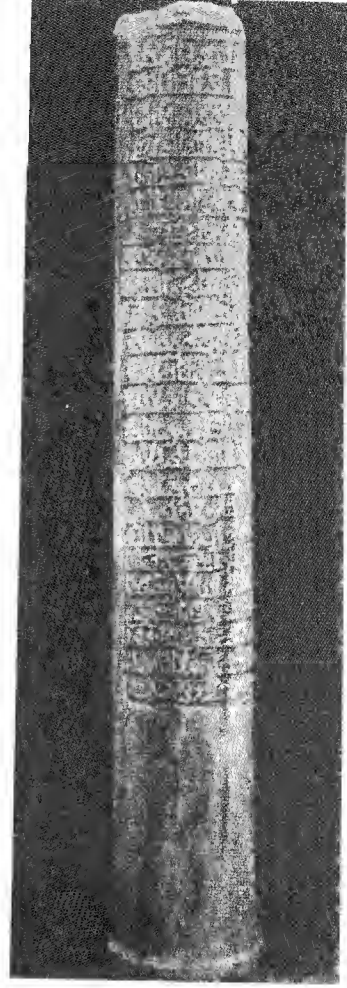


مدينة القيروان 242 هـ.

نماذج من الخط الكوفي ذي النحت الغائر، القرن الثالث هجري



مدينة القيروان 265 هـ.



مثال لتطور الخط الكوفي خلال النصف الأول من القرن الخامس.
مدينة القيروان 421 هـ

مثال لظهور استعمال الخط البارز في قبريات إفريقية خلال النصف الأول من القرن الرابع هجري

لوحة 3 :

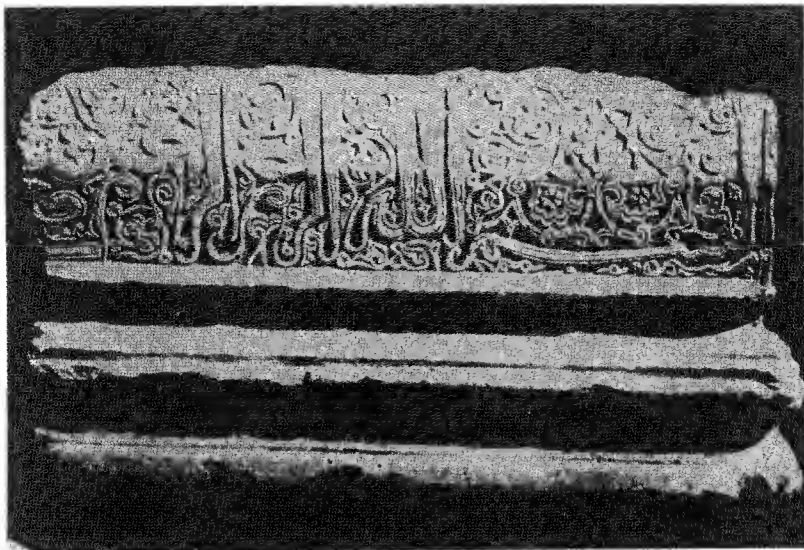
مدينة القيروان 444 هـ



نماذج من الخط الكوفي
ذي النّحت البارز

مدينة المنستير 521 هـ





مدينة تونس 490 هـ

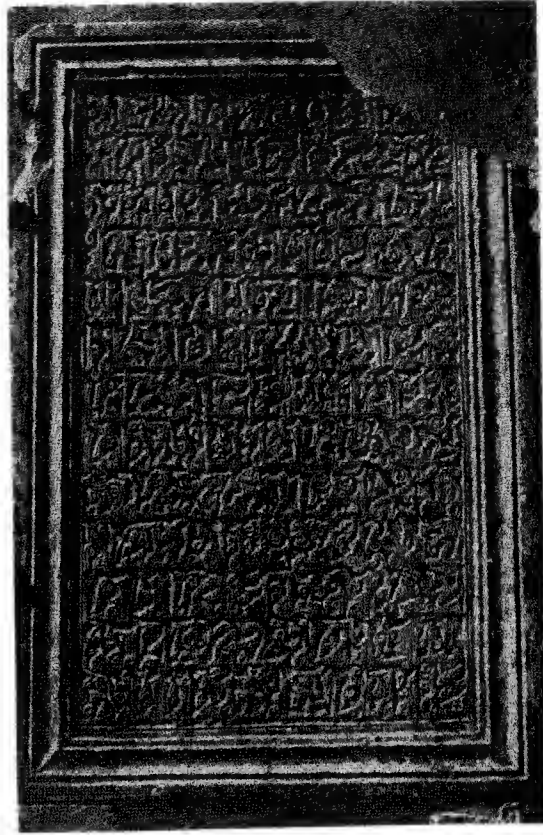
لوحة 4 :

أول وثائق لاستعمال الخط النسخي
في كتابة شواهد قبور إفريقية



مدينة تونس 190 هـ

لوحة 5 :



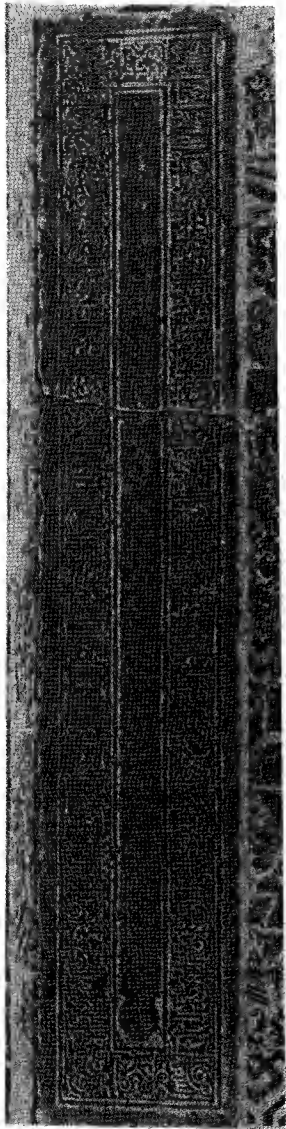
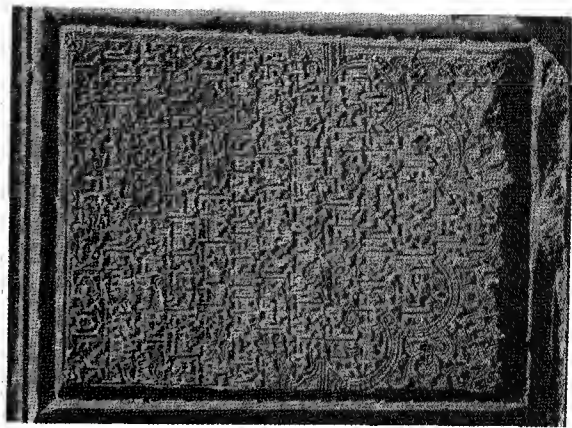
500 هـ



530 هـ

كتابة قبريات مدينة تونس خلال النصف الأول للقرن السادس هجري

آخر جينات استعمال الخط الكوفي
في كتابة قريبات إريقية 623 هـ



1268/هـ 667 م